

الفصل ١١

تعقيدات الرعاية الأبوية الناجحة

لقد ركزنا في الفصول السابقة على الأطفال، وعلى ما يمكن أن يفعله أولياء الأمور لهم. ونتحول الآن إلى الحديث عن العلاقات بين الوالدين، وما يجب أن يقوموا به؛ كي يعتنيا بنفسيهما وبالعائلة كلاًهما. فليس سهلاً أن تكون والدًا لطفل موهوب، بل إنه لأمر مرهق أحياناً، وقد أصبح هذه الأيام أكثر تعقيداً ممّا كان عليه في العقود السابقة.

ولا شك أن طرق رعاية الوالدين لأطفالهم حالياً قد اختلفت عمّا كانت عليه منذ أيام والدينا، وأيام أجدادنا من قبل. في تلك الأيام، حيث كان من المألوف أن يأخذ الأب ابنه الصغير إلى مخزن الحطب، ويجلده بحزامه الجلدي. أما في هذه الأيام فقد غدت أساليب رعاية الأطفال أكثر ديمقراطية، وأقلّ اعتماداً على العقاب. كان يسمح للأطفال قديماً أن يتواجدوا حيث يوجد الكبار، شريطة التزامهم الهدوء على مبدأ أن «يُروا ولا يُسمعوا»، ولكننا اليوم نشجّعهم على التحدّث إلينا، ومشاركتنا أفكارهم ومشاعرهم. كما اختلفت توقّعاتنا من أطفالنا هي الأخرى، فقد ساعدتنا بحوث الدماغ الحديثة على أن نفهم متى يكون الأطفال أكثر استعداداً للتعلّم، وكيف يكون ذلك، حيث أشارت هذه البحوث إلى قدرة أطفالنا في بعض الميادين، على تعلّم أكثر ممّا كنّا نتوقّع منهم.

إنّ أساليب رعاية الأطفال تتغيّر يوماً بعد يوم، حيث تكافح الأجيال الشابّة لتلحق بالتوصيات التي تمخّصت عنها آخر البحوث ونصائح الخبراء، ومن ثمّ تقويم المعلومات الجديدة في ضوء القيم والممارسات التقليديّة. علاوةً على ذلك، فقد أضعفت بعض التغيّرات التي حدثت في المجتمع تأثير الوالدين، وقلّلت من دعم العائلات الممتدّة، إذ يعيش بعض أفراد العائلة الواحدة هذه الأيام بعيدين جدّاً عن بعضهم بعضاً. وأصبحت التغيّرات التكنولوجيّة والاستهلاكيّة والاجتماعيّة من العوامل المهمّة التي تؤثّر في أطفالنا. وهذه بالطبع مجرد بعض الصعوبات التي تواجه رعاية الأطفال.

العوامل المؤثّرة في الرعاية الحديثة للأطفال

التنقل والحركة: تنتقل العائلة العادية في الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى مكان جديد مرّة واحدة على الأقلّ كلّ ست سنوات، ويعزى سبب ذلك في معظم الأحيان إلى تغيّر وظيفة أحد الوالدين. ونتيجة لذلك تفقد العائلة ارتباطها بمجتمعها في كلّ مرّة تنتقل فيها، إلى درجة تجهل فيها أسماء جيرانها، ويشعر الشخص أنّه غير معروف في مجتمعه. وهذا الحال هو العكس تماماً على ما كان عليه الوضع في العقود الماضية حين كانت العائلات تعيش في الحيّ نفسه مدّة عشرين سنة على الأقلّ، وتعتمد على الجيران الذين تعرفهم جيّداً وتربطها بهم علاقات حميمة. كان الناس يشعرون بالأمان؛ لأنّ السكّان كانوا يعرفون الأطفال جميعاً بأسمائهم. وكان الوالدان يعرفان أن ابنهم إذا أساء التصرف في بيت أحد الجيران فسوف شخص في ذلك البيت بتصحيح سلوكه. يؤثّر هذا التنقل من مكان إلى آخر داخل البلاد سلبياً على الأطفال والعائلات على حدّ سواء، فهو من ناحية يقلّل فرص رؤية الأطفال أجدادهم

وأعمامهم وأخوالهم وعمّاتهم وخالاتهم. ومن ناحية أخرى يعيق قدرة العائلات الممتدة، التي يمكن أن تمنح الشعور بالاستقرار والانتماء والحماية للأطفال، على المحافظة على علاقاتها الاجتماعية مع الآخرين من بعيد.

في الأجيال الماضية، عاشت العائلات الممتدة معاً، وعملت في البلدة الصغيرة ذاتها، وشاركت في الفعاليات الاجتماعية ذاتها، وتناولت الطعام معاً، وقضت أوقات العطل معاً. كان الأطفال يلعبون مع أبناء عمومتهم، ويعرفون خالاتهم وأخوالهم وعمّاتهم وأعمامهم. وكان أفراد العائلة إذا ما توفّوا يُدفنون في المقبرة ذاتها، وكانت كلمة عائلة تعني: الأعمام، والعَمّات، والأخوال والخالات، وأولاد العمّ، وبنات العمّ، وليس الوالدين والأشقاء فقط. كان الناس في التجمّعات العائلية يتحدثون عن خبراتهم المشتركة، بما في ذلك كلّ ما يحدث لهذا الشخص أو ذاك، أو كيف حقّق هذه الشخص أو ذاك نجاحاً مميّزًا، أو تعامل مع مأساة، أو فشل في حياته. وكان الأطفال يسترقون السمع إلى هذه القصص، ويسألون والديهم عنها في أثناء العودة إلى المنزل. وهكذا، فقد ساعدت هذه اللقاءات والأحداث في ترسيخ قيم العائلة وتقاليدها، والإحساس بالانتماء إليها من جيل إلى جيل. يومها، كان الأطفال يعرفون موقع عائلتهم في سياق العائلة الكبرى، أي معرفة أوجه الاختلاف وأوجه الشبه بين العائلة الصغرى والعائلة الكبرى.

ومع عبورنا إلى القرن الحادي والعشرين، أصبح يتوافر لدينا قدر كبير من الحرية في أسلوب الحياة؛ حيث نمتلك حرية اختيار مكان سكننا، ومكان عملنا، ونوع العمل الذي نمارسه. لكننا من جهة أخرى أصبحنا أكثر انعزلاً عن الآخرين في أوجه عديدة، فقد فقدنا ميزة وجود جيران وأفراد من العائلة يعيشون قريباً منا، ويهتمون بأطفالنا، ويشاركوننا الأعياد والمناسبات الخاصة الأخرى. ونحن نتردّد كثيراً قبل أن نضرب جذوراً عميقة في علاقاتنا مع مجتمعنا المحلي الجديد؛ لأننا نتوقّع الرحيل إلى مكان آخر في غضون سنوات قليلة. وبناء على ذلك، فإنه يصعب على أفراد العائلة الواحدة عندما تفصل بينهم مسافات كبيرة أن يسندوا بعضهم بعضاً لمواجهة مشكلات الحياة، فعلى سبيل المثال، عندما يُنقل أحد أفراد العائلة إلى المستشفى إثر حادث مؤسف، فإنّ الأفراد الآخرين لا يمكنهم، نظراً لبعُد المسافات، الانطلاق بسياراتهم بكل بساطة؛ ليكونوا إلى جانب سرير ذلك المصاب كما كانوا يفعلون في الماضي. وعندما تضطرب العلاقات داخل العائلة، لا يتواجد أفرادها كلهم ليقدّموا رأياً، أو يسدوا نصيحة. صحيح أنه يمكنهم الاتصال هاتفياً، أو إرسال رسالة إلكترونية، لكنّ الترابط الفعلي الماديّ يكون مفقوداً.

كان الناس قديماً يلجئون إلى العائلة في حالات الطوارئ، لكنهم اليوم يلجئون إلى الأصدقاء، أو إلى المرشدين النفسيين، كما أنّهم معظم الأحيان، ينتظرون إلى أن تتفاقم المشكلة قبل أن يتحدثوا مع أيّ شخص آخر. صحيح أنّ سهولة التنقل والحركة تمنح الناس قسطاً من الحرية، ولكنها تكبّدهم تكاليف باهظة من جهة أخرى.

الطلاق والزواج: لقد تزايدت حالات الطلاق وتكرار الزواج في السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ، إذ تشير الأرقام الرسمية إلى أن نصف الزوجات تقريباً تنتهي بالطلاق، وتتفكك على إثره العائلات، ويترك

آثاراً دائمة على الوالدين، والأطفال، والأصدقاء، وحتى على الأجداد وغيرهم من أفراد العائلة الممتدة. ومن الممكن أن يكون الطلاق والانفصال العائليّ أشدّ تأثيراً في الأطفال الموهوبين؛ وذلك بسبب حساسيتهم للانفعالات. وعلى الرغم من أنّ ترتيبات الوصاية يراد لها أن تكون منصفة، إلاّ أنّها قد تؤديّ إلى صعوبات إضافية، سواء كان الوالدان في المدينة ذاتها، أو في مدينة أو ولاية بعيدة، كما أنّها قد تؤديّ الحياة العائليّة بعدة طرق خطيرة. ومع أنّ الأطفال مرنون بوجه عامّ، إلاّ أنّ التنقّل من منزل إلى آخر يكون أمراً صعباً؛ وذلك بسبب احتمال اختلاف الروتين والقوانين والتوقعات والتقاليد في المنزلين.

يتضمّن الطلاق معه دائماً حزناً انفعالياً، وخيبة أمل في العائلة كلّها. كما تتأثر العلاقات العائليّة من عدّة أوجه. يمكن أن يفصل الطفل الذكيّ، لاسيّما إن كان مراهقاً، الانفصال عن عائلته، ويفكر قائلاً: "لقد خذلتني عائلتي؛ لذا فإنني سوف أحمي نفسي بالتقليل من أهميّة هذه العائلة، بما في ذلك أفراد العائلة الممتدة، والشركاء الجدد لوالديّ".

وعندما يصاحب الطلاق شجار بين الوالدين، وصراخ وأصوات مرتفعة وتصرفات حادّة ومخيفة، فإنّ أطفال الوالدين المطلّقين سوف يتشككون في مدى ثقتهم بوالديهم، أو حتىّ بأيّ شخص بالغ آخر. وقد يفقدون الثقة بمن سيتزوّجون في المستقبل، ظلماً منهم أنّ الزواج سيكون مجرد مغامرة كبيرة^٢.

يضيف تكرار الزواج، والمحاولات المتتالية للطلاق، وضم أطفال الزوجين في العائلات الجديدة، تحديات خاصّة، إذ يتعيّن على الأطفال تقبّل الوضع، والشروع ببناء علاقات مع زوج الأمّ، أو زوجة الأب. كما يتعيّن أن تُقبّل التقاليد المعمول بها في إحدى العائلتين من قبل أطفال العائلة الأخرى، وأن يبدأ الأشقاء بتحديد موقعهم النسبيّ في العائلة والقضايا المتعلقة بالموقع والسلطة. يعدّ التكيف مع الوضع الجديد أمراً صعباً في العادة، وكثيراً ما تحتاج العائلات المختلطة الجديدة إلى مساعدة المرشد النفسي.

تسارع الأحداث: توقّعت وزارة العمل الأمريكيّة والمخطّطون للمستقبل في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، أنّ انتشار الحواسيب والأجهزة التكنولوجيّة الأخرى سيؤديّ إلى تقليص عدد كبير من الوظائف، حيث إنّنا لن نحتاج عند نهايات القرن لأن نعمل أكثر من أربعة أيّام في الأسبوع. وقالت هذه التوقعات أن الشركات سوف تضم مراكز لرعاية الأطفال، كما أننا سوف نتمتّع بأسابيع إجازة طويلة، وسوف يتوفر لنا وقت فراغ أطول. ولهذا أوصى المخطّطون بضرورة أن نبدأ التخطيط وتطوير هوايات جديدة لاستغلال أوقات الفراغ.

وقد انقضى القرن العشرون، وبدأ القرن الحادي والعشرون، لكن الواقع ظلّ مختلفاً تماماً عن تلك التوقّعات، حيث يعاني معظمنا من ضغوطات العمل الذي يتطلّب الكثير من الوقت والجهد، ويسافر كثير من العمّال من مكان عملهم وإليه مدّة ساعة أو أكثر ذهاباً وإياباً، ويعملون ثماني ساعات في اليوم، ويتابعون عملهم في المنزل أحياناً، فيتعرّض هؤلاء العمّال إلى ضغوطات لكسب ما يكفيهم للعيش المريح، وامتلاك سيارتين ومنزل جميل، والتوفير من أجل التقاعد ودراسة الأبناء الجامعية، ويلازمهم إحساس دائم بضرورة الإنتاج، حتىّ في عطلة نهاية الأسبوع. إضافةً إلى ذلك فإنّ الناس

يستعملون الهواتف المحمولة لإنجاز أعمالهم، حتى في الطرقات، ونادراً ما يمر وقت قصير لا يتواصلون فيه بشركاء العمل، أو وسائل الإعلام، أو بالناس الآخرين عبر وسائل التكنولوجيا. كما أن المعلومات منتشرة في كل مكان عبر أخبار القنوات الفضائية والصحف والإنترنت، والناس في ضغوطات مستمرة للحصول على هذه المعلومات، والاتصال الدائم بالأحداث العالمية. إن هذه الخطوات المتسارعة في حياتنا لا تترك للوالدين والأطفال إلا القليل من الوقت يقضونه معاً.

وقد أشار "ستيفن كوفي" Stephen Covey في كتابه المصنّف من بين أكثر الكتب مبيعاً: العادات السبع عند الناس الأكفاء جداً *The Seven Habits of Highly Effective People* إلى «إننا نستجيب في معظم الأحيان لما نشعر أنه ملج، أكثر من استجابتنا لما هو مهمّ. فمساعدة طفلنا على أداء واجبه المنزلي بعد تناول الغذاء قد تكون أكثر أهمية من مكاملة العمل المستعجلة. وإذا وجّهنا انتباهنا لما هو «مهمّ» بدلاً من توجيهه لما هو «مستعجل» ستكون فرصنا أفضل في مواجهة الضغوطات التي نتعرّض لها»^٢.

لا يوجد شيء لا يُصدّق: تؤدّي سهولة الوصول إلى المعلومات عبر شبكة الإنترنت ومحطات التلفزة الفضائية إلى نتيجة أخرى غير مقصودة، فأطفالنا يشاهدون أحداثاً وأفعالاً كانت الأجيال السابقة تعدّها ضرباً من المستحيل الذي لا يمكن تخيّلها. إنهم يسمعون أقرانهم ويرونهم وهم منشغلون بسلوكات غير آمنة على الإنترنت، ويشاهدون الأحداث الباعثة على الخوف والرهبة والتشويش التي تُعرّض عبر الأخبار، فهم يرون صور تفجيرات، ووقّيات ناجمة عن بعض الأمراض، ويسمعون أنباءً عن اختطاف الأطفال. لا شكّ في أنّ الأطفال الأذكى هم الأكثر تأثراً بهذه التقارير الإخبارية؛ نظراً لشدة حساسيتهم، وحدّتهم وقوّتهم، وتعاطفهم وإحساسهم بالعدالة الأخلاقية. وتفادياً لذلك يوصي كثير من الخبراء أولياء الأمور بإبعاد أطفالهم عن البرامج الإخبارية التلفزيونية، وبعض البرامج المخصّصة للكبار؛ لأنّ بعضها تكون مجسّدة وواضحة لدرجة تبقّيها عالقة في ذاكرة الأطفال، وتسبّب لهم كثيراً من القلق والكوابيس^٣.

القُدوة السيئة: تقدم كثير من الأفلام السينمائية والعروض التلفازية شخصيات نموذجية سيئة تتفاعل في ما بينها بكثير من التهكم والسخرية والأنايية كمل لو كانت هذه السلوكات ليست مقبولة فحسب، ولكنها أيضاً فكاهاية وتستحق التقليد. وأحياناً ما تصوّر بعض العروض الأطفال الموهوبين والنايخين في أدوار هزلية تستحق الاحتقار- فهم بحسب هذه العروض سخفاء، أو منبوذون، أو حمقى وليسوا أشخاصاً يستحقّون الاحترام والتقدير. وعندما يُستهزأ بالأطفال الأذكى في وسائل الإعلام، فيمكن أن يدمّر ذلك تقدير الذات لدى الأطفال الموهوبين الآخرين. وتعكس بعض العروض الأخرى صورة سلبية تماماً عن الوالدين، فيبدوان فيها عديمي الكفاءة وهذا ما يجعل نجاحهما في تنشئة أطفالهما مهمة صعبة. لذلك بدأ عدد كبير من الوالدين بمراقبة هذه البرامج، وتقليص مشاهدة أطفالهم لها، والاحتجاج على محطات التلفزة التي تبثّها.

الروح الاستهلاكية: يُعدّ الاقتصاد ومستوى المعيشة الأمريكي مرتفعاً مقارنةً بمعظم البلدان الأخرى، فالطعام واللباس وأساليب الرفاهية متوافرة وكثيرة. وإذا ما صدّقنا الإعلانات والدعايات على التلفاز،

فإن المجتمع الأمريكي يتكوّن في الأغلب من راشدين شباب يمتلك كل واحد منهم منزلاً في الضواحي، وسيّارتين حديثتي الصنع، وتلفزيوناً بشاشة عريضة، وجهاز حاسوب مزوّد بخدمة لا سلكي، وهواتف محمولة، وأريكة للاستلقاء، ومكاناً للشواء، وبركة سباحة أو منتجع مياه معدنيّة. ويحصل أطفال هذه العائلات في معظم الأحيان على آخر ألعاب الفيديو، وأحدث موديلات الملابس، وأشهر قصّات الشعر. وبالرغم من هذه الصورة الوردية، إلا أنّ بعض الاختراعات التكنولوجيّة أصبحت عائقاً يحول دون متانة العلاقات بين أفراد العائلة، فالأطفال اليوم يفضّلون الانشغال بسماع الموسيقى، أو بألعاب الفيديو أكثر من المشاركة في نشاط متبادل مع أحد الوالدين، أو أي شخص آخر في العائلة. ويعني تناول الغذاء خارج البيت عند بعض العائلات، أن يستمع الأطفال للأغاني على جهاز الجيب المحمول إلى حين أن يصل الطعام، أو أن يشغلوا أنفسهم بلعبة إلكترونية بعد تناول الطعام. من النادر هذه الأيام أن نرى الأطفال يركضون خارج المنزل، أو يلعبون بالكرة مع أصدقائهم، أو يذهبون إلى المكتبة لبحثوا عن كتاب، أو يبنون شيئاً ما، أو يساعدون والدتهم في الطبخ. لقد أصبح معظم أطفال القرن الحادي والعشرين محرومين من اللعب التخيلي، أو متعة صنع الأشياء البسيطة. ولا يعني هذا أنّ الأجهزة التكنولوجيّة سيئة، ولكنّ السوء يتمثّل في المبالغة في استعمالها؛ لأنّ ذلك يؤثّر سلباً على العلاقات العائليّة.

قد يكون كلّ ما تقدّم أمراً محبباً لك، ولكن هذه هي حقيقة المجتمع الذي نعيش فيه. ونحن لا نستطيع مواجهة هذا التأثيرات إلا إذا كنّا على وعي تامّ بها، واعترفنا بوجودها. حينئذٍ نستطيع اتّخاذ خطوات عمليّة داخل عائلتنا لإبطال تأثيرها، أو التخفيف منه قدر الإمكان.

كيف تكون والدًا ناجحًا؟

يرغب كلّ والد أن يكون ناجحًا. ولكن، ما الذي يحدّد النجاح؟ وما الأهداف؟ ثمة ست مهامّ يتعيّن على الوالدين القيام بها، وهي:

- تقبّل تفرّد الطفل، وتقديره.
- مساعدة الطفل على حبّ نفسه، والارتباط جيّدًا بالآخرين.
- مساعدة الطفل على تطوير العلاقات والشعور بالانتماء داخل العائلة.
- رعاية تطوّر القيم لديه.
- تعزيز الدافعيّة الذاتيّة، والإدارة الذاتيّة، والانضباط الذاتي.
- مساعدة الطفل على اكتشاف عواطفه، وبيئته.

رگزنا في فصول عديدة من هذا الكتاب على الطرق والأساليب التي تحقّق هذه المهامّ. ونحن ندرك تمامًا أنّ للوالدين أفكاراً مختلفة عمّا يعنيه مصطلح الرعاية الأبوية الملائمة، وعادة ما تكون أساليبهم مبنيّة على الأساليب التي تربوا بها. وفي الحقيقة أنه لا توجد طريقة مثلى لرعاية الطفل،

لأن الطريقة تعتمد على الطفل نفسه. ونحن نرى أن أفضل طريقة لعائلتك هي ما تتفقان عليه أنت وزوجتك، وتنمذانه بشكل ثابت لتحقيق المهام الست التي ذكرناها آنفاً.

وعلينا أن نتذكر أن الأخطاء تشكّل جزءاً من الحياة، فتربيتنا لأطفالنا لا تكون دائماً كما نريد لها أن تكون. وكما ذكر عالم النفس "هايم جينوت" Haim Ginott منذ وقت قديم: "لا يصحو والدٌ من نومه صباحاً وهو يخطّط كيف يجعل حياة طفله تعيّسة. ولا توجد أمٌ تقول لنفسها، على سبيل المثال: "سوف أصرخ اليوم على طفلي، وأزعجه، وأذله كلما استطعت ذلك." ولكن على الرغم من هذه النوايا الحسنة، فإننا كثيراً ما نقول لأطفالنا عبارات لا نعيها تماماً، أو نخاطبهم بنبرة لا نحبها. ونحن دون شك، لا تنقصنا الحكمة كي نتعلّم من هذه الأحداث، ونستمرّ في محاولات التحسين. والرعاية الأبوية الناجحة، شأنها شأن جوانب عديدة من حياتنا، تتضمن قدرًا من الخطأ. لقد عرفنا آباءً وأمّهات يبدو أنهم فعلوا الشيء «الصحيح»، لكن أطفالهم لم يكونوا كما كانوا يتأملون. إننا لا ننكر أن تربية الأطفال خبرة شاقّة جدًّا، ومع ذلك علينا أن نمر بها من البداية حتى النهاية، ونبدل أقصى ما نستطيع لإنجاحها. ولهذا، علينا أن نتأكد من أننا قد وضعنا الأساس المتين لأطفالنا، وزرعنا فيهم القيم الصحيحة، لكننا لا نستطيع معرفة نتائج جهودنا فوراً، وقد لا نعرفها إلا بعد مرور وقت طويل.

يجب أن يعتنى الآباء والأمهات بأنفسهم أيضاً

قد تجعل ضغوطات الحياة اليومية الآباء والأمهات في بعض الأحيان أنهم مقهورون ومغلوبون على أمرهم، في حين لا تترك مطالب الأطفال للوالدين إلا القليل من الوقت للاهتمام بحياتهما الشخصية، ولقاء أصدقائهما أو ممارسة هواياتهما.

تضيف الدروس والأنشطة عبئاً إضافياً على ميزانية العائلة. فأنت قد تشعر أنّ من واجبك توفير برامج إثرائية لهؤلاء الأطفال الذين يمتلكون إمكانيات عالية، لكن السؤال هو: إلى أي حدّ تستطيع أن تصحّي بحياتك الشخصية من أجلهم؟ نحن نعتقد أنه يجب عليك أن تخصص وقتاً لنفسك مثلما تخصص وقتاً معيّناً تقضيه مع كلّ واحد من أطفالك، لأنك إذا لم تقم بشحن بطاريتك فلن تتوفر لديك طاقة كافية تعطيها للآخرين. فمثلاً، قد يخرج الوالدان وحدهما لتناول العشاء، أو للتنزه سيراً على الأقدام، أو لممارسة نشاط ترفيهي خارج المنزل، أو للمشاركة في مناسبة اجتماعية. ويحتاج الوالدان للمحافظة على علاقات مع البالغين الآخرين. ولأن من السهل أن يفتتن الوالدان بأطفالهم الموهوبين، فإن علاقاتهم مع البالغين الآخرين سوف تتضرر، فهل يتوافر لك الوقت للقيام بأشياء بدون طفلك، مثل قضاء وقت مع شريك حياتك أو صديقك؟ من ناحية أخرى، قد يتّصف بعض الآباء الموهوبين بالتركيز على مهنتهم لدرجة يهملون معها علاقاتهم مع زوجاتهم، ما أنهم قد يكرّسون جهوداً كبيرة لرعاية علاقاتهم مع أطفالهم. ولا شك في أنّ تحقيق التوازن بين مطالب المهنة، والعلاقات مع الآخرين وحاجات الأطفال يمكن أن يكون مهمّة شاقّة ومخيفة. لكن العائلة سوف تفقد التوازن المطلوب إن كانت علاقة الأب بأطفاله أقوى أو أكثر أهمية من علاقاته بزوجه، أو إن كان الأب يفضّل علاقته بالطفل على علاقته بالكبار. إن اهتمام الأب بنفسه يعني اهتمامه بعلاقته مع زوجته، ومع الأصدقاء المقربين،

فإلى أي مدى تفكر في حاجات زوجتك وأصدقائك واهتماماتهم؟ إن بناء أي علاقة ناجحة تتطلب منك أن تهتم بما يريد الشخص الآخر القيام به، وكذلك التأكد من وجود توازن بين ما يريد الشخصان فعله. فهل توجد أنشطة تلبي حاجات كل من الوالدين؟

فكر أيضاً وأنت تتأمل في حاجاتك الخاصة فيما تعتقد أنك تمثل به قدوة لأطفالك. كيف تهتم بالحاجات العقلية والانفعالية والاجتماعية والروحية؟ فالأطفال يودون معرفة كيف يحقق الكبار حياة متوازنة. ويود الأطفال أيضاً أن يروا كيف يحافظ الكبار على علاقاتهم مع الآخرين، وكذلك المهارات المتبعة، مثل إظهار الاهتمام وطريقة النقاش الصادق وكيفية حل النزاعات. ولهذا يعد المنزل أفضل مكان يتعلمون فيه.

وفي خضم كل هذا، عليك أن تعرف/ي مستوى طاقتك وقدرتك على الجلد والتحمل؟ إن مقدار ما يمكن أن تمنحه لأطفالك يعتمد جزئياً على صحتك وطاقتك، وقد يكون من الحكمة عندما تشعر/ين أن طاقتك بدأت بالتناقص، أن تبحث عن أشخاص آخرين يساعدونك في تقديم الإثارة والتحفيز والدعم والتشجيع لأطفالك، منهم مثلاً الزوج/ة، أو الجد، أو أحد الأصدقاء. لا تضغط على نفسك لتكون رجلاً خارقاً ولا تضغطي على نفسك لتكوني امرأة خارقة، بل اسمح/ي لنفسك أن تشعر/ي بالتعب والقلق وارتكاب الأخطاء، وسوف يتجاوز الأطفال عن أخطائك ما داموا يعرفون أن والديهم يحبونهم. لست مجبراً على الإجابة عن أسئلتهم كلها، ولا أن تكون أراوكم وأفكارك صحيحة دائماً. فالوالد الذكي جداً، الذي يعرف كل شيء يعد قدوة يصعب على الطفل تقليده. فعلى سبيل المثال وقف طفل صغير ليصف بحماس كبير كيف عرف أن «هانيبعل» Hannibal كان أول من ساق الفيلة عبر جبال الألب، لكن والده قضى على حماس الصغير إذ سرعان ما أخبره أن عم «هانيبعل» قد سبق ابن أخيه، وساق الفيلة عبر الممر ذاته قبل عدة سنوات. لم يكن الوالد على وعي بمقدار الضرر الذي تسببت به معرفته الواسعة لأفراد الأسرة الآخرين. لقد تعلم أفراد هذه العائلة ألا يتحدثوا عن أية حقائق أو آراء؛ خشية أن يواجهوا بالإحباط إذا ما فند أبوهم هذه الحقائق أو الآراء. ولهذا، فإن تأثير الآباء الموهوبين الذين يكونون دائماً على صواب يكون قوياً - وضاراً أحياناً - على عائلاتهم.

حافظ على نظرتك الخاصة، وعلى مسافة بينك وبين طفلك

يمكن أن تكون رعاية الطفل الموهوب عملية مرهقة للعائلة المكوّنة من الأم والأب، وهي حتماً أكثر إرهاقاً عند غياب أحدهما، فغياب أحد الوالدين من العائلة يعني غياب الدعم المادي، والأخلاقي، والانفعالي الذي يمكن أن يقدمه شخص كبير، إضافة إلى الصعوبات المالية التي يسببها هذا الغياب. إن كنت تتولى رعاية الطفل وحدك، فإنك قد تحتاج إلى دعم إضافي من أحد أصدقائك، أو أقربائك، أو حتى أجدادك، ليتحمل عنك بعض المهام أحياناً، فيقدم بذلك مساعدة أنت في أمس الحاجة إليها، حتى لا تشعر بالوهن والإعياء.

لا يخطئ معظم الآباء أو الأمهات لأن يكونوا دون شريك، ولكنهم يصحون كذلك عقب طلاق، أو انفصال، أو موت أحدهما. يضاف إلى ذلك أن هناك عدداً متزايداً من الآباء الذين يختارون أن يكون

لديهم أطفال، من خلال التبني مثلاً، وأن يربّوهم دون شريك زواج. ومهما يكن الأمر، هناك بعض المشكلات الخاصة بالآباء الوحيدين، أو الأمهات الوحيدات، مثل كيف يفسّر أحدهما خياره في أن يكون أباً وحيداً أو أمّاً وحيدة؟ كيف يفسّر لطفله الموهوب عملية الطلاق، أو الانفصال، أو الموت؟ ما حجم المعلومات المناسب توفيره للطفل مع أخذ عمره في الحسبان؟ ما الأمور التي يتعيّن على الأب الوحيد، أو الأمّ الوحيدة الوعي بها؟

يوجد نوعان من المخاطر التي يواجهها الأب الوحيد، أو الأمّ الوحيدة، مع الطفل الموهوب، مع أنها قد تحدث أيضاً في العائلات التي يوجد فيها والدان. وهذان الخطران هما:

- التعامل مع الطفل كما لو كان راشداً Adultizing the gifted child.

- التورط في مصيدة الطفل Enmeshment.

التعامل مع الطفل الموهوب كما لو كان راشداً: من السهل الوقوع في مصيدة التحدّث مع الطفل الموهوب وكأنّه شخص راشد، والاعتماد عليه في تقديم النصائح، وحتىّ الدعم الانفعالي أحياناً. والسبب في وقوعنا في هذه المصيدة هو أن مثل هذا الطفل يظهر كفاءة واضحة ويبدو مثل البالغين في أوجه كثيرة. ولهذا، يسهل على أب وحيد أو أمّ وحيدة أن يتقاسما مع طفل عمره ٨ أو ١٢ سنة مسائل شخصية لا تتناسب مع عمره. وقد يلعب بعض المراهقين الموهوبين، أو بعض الموهوبين الذين لم يبلغوا سنّ المراهقة بعد، دور الراشدين في وقت مبكر، ومن ثمّ ينتقدون أصدقاء والديهم بصراحة متناهية في وقت لاحق، أو يتوقّعون من أحدهما أن يتشاور معهم قبل التعرّف إلى أشخاص آخرين. ويمكن أن يؤدي هذا إلى حالة من التخبّط والإرباك فيما يخصّ دور هذا الطفل في عائلته، خاصة وأن هذا الطفل يشعر أنّه يتحمّل مسؤوليّة رفاهية وسعادة والده أكثر ممّا يجب أن يفعل الأطفال. وفي الحقيقة أن الطفل يحتاج إلى أن يعيش طفولة خالية إلى حدّ كبير من مشكلات الكبار وهمومهم. صحيح أنّ الأطفال الموهوبين ينجزون أعمالاً رائعة كثيرة، وقد تكون إنجازاتهم على مستوى إنجازات الراشدين؛ وصحيح أنّ ذلك يمثّل مصدر متعة للوالدين لكن، يتعيّن على الوالدين أن يروا بوضوح الفروق التي تفصل بين الطفل والراشدين. كما أن علينا أن نتذكر أن النضج والحكم الانفعالي يتأخّران كثيراً عن التطوّر العقليّ عند الأطفال الموهوبين. وعلى الرغم من أنّ الطفل الموهوب يبدو مثل الراشد الكبير، إلا أن استعداده الانفعالي لاستيعاب مواضيع البالغين يكون عادة قريباً من استعداد الأطفال الذين في مثل عمره.

ومن الأهميّة بمكان أن تدرك أنّ طفلك الموهوب سوف يهتمّ اهتماماً شديداً بالوضع العائليّ، وسيكون من الضروريّ التواصل معه في موضوعات غير ملائمة للأطفال الآخرين من العمر نفسه. فقد يثير انتقال العائلة إلى منزل جديد، على سبيل المثال، أسئلة - تشبه أسئلة الراشدين - تتعلّق برهن العقارات، والأسهم المتعلّقة بالمنازل. أو قد يثير هذا الانتقال خلافاً طفوليّة تتعلّق بالسرير الذي سوف يحصل عليه كلّ أخ من الأخوة حسب ترتيب الأعمار، وسوف يكون تفاوت النمو بين الطفل الموهوب والآخرين واضحاً في حسم الأمر. وأياً كان الموقف، فإنّ مناقشة الطفل وطمأنته تعدّ ضرورة لتأسيس علاقة جيّدة معه، لكن، تجنّب دائماً أن تكلف طفلك الموهوب بمناقشة الكبار الآخرين بدلاً

منك، أو بالحديث معهم عن علاقاتك الحميمة بهم، أو صحبتهم لك. ويمكن أن يكون تذكّر هذه النصيحة أمراً صعباً عندما يكون الأب الوحيد أو الأم الوحيدة بحاجة إلى التواصل مع شخص ما ولا يجد أحدهم سوى هذا الطفل القادر على تقديم الدعم العاطفي. ولهذا، عليك عندما تكون بحاجة إلى التواصل أن تبحث عن أشخاص كبار ولا تشارك طفلك همومك ومشكلاتك.

وأحياناً ما يحدث شكل آخر من أشكال التعامل مع الطفل- بصفته كبيراً راشداً- في بعض العائلات سواء كانت أحادية الوالدين أم ثنائية الوالدين، ويتمثل في مبالغة الوالدين في تمكين الطفل الموهوب. فقد تمنح هذه العائلات الطفل الموهوب مزيداً من الحرية، أو المسؤولية العائلية لدرجة تحدث فوضى وعدم انضباط وخبلاً في ميزان السلطة في العائلة. وفي العادة ما يكون مثل هذا الطفل في نظر والديه محبوباً جداً، وجدّاباً، وذكياً، ومسئولاً، مما يؤهله للحصول على مكانة مفضلة في العائلة حيث يتوقعون أن لا يصدر عنه معها أي خطأ. أو قد يحدث أن الوالدين قد يبالغان، أحياناً، في تقمّص سلوكيات أطفالهم العقلية والإبداعية. وينتج هذا عن إعجاب الوالد بقدرات طفله، أو عن رغبته في أن يكون صديقاً له أو مدافعاً عنه، وليس مجرد أب له فقط. وقد تنجم هذه الرغبة عن حاجة أو «حرمان» عند الأب فيقوم الطفل بإشباع هذا الفراغ أو الحاجة العاطفية، أو قد تكون نتيجة لأساليب الرعاية الأبوية غير الفعالة التي تصدر عن الوالد بحسن نية. وأياً كانت الأسباب، فإن هؤلاء الأطفال يبدوون بالشعور كما لو أنهم على مستوى الشخص الكبير نفسه، ولهذا يمارسون، أو ربّما يُمنَحون، سلطة في العائلة أكبر بكثير ممّا يستحقون.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن الأطفال الموهوبين ليسوا نسخاً مصغرة عن الراشدين، يفكّرون، ويتصرفون ويستجيبون كما يفعل الكبار، فالتعامل مع الطفل بصفته راشداً يمكن أن يُحرّمه بعض الخبرات الطفولية المهمة والقيمة. وفي هذا الصدد، يقدّم لنا «روبير» Roepel نصيحة حكيمة فيقول: «حافظ على مكانتك في الأسرة، وعلى كونك الشخص المسئول فيها. اجعل طفلك يشعر بالحماية، بدلاً من أن تشعره أنه هو المسئول عن العائلة»^٧.

التورط في مصيدة الطفل: ينغمس بعض الآباء والأمهات وينخرطون في حياة أطفالهم، فترتبط أنشطتهم وقناعاتهم في الحياة بسلوكيات الطفل إلى درجة يصعب معها تحديد أين ينتهي الطفل، وأين يبدأ والداه؟ وتزداد احتمالات هذا الانغماس والتورط الزائد عن الحد في حياة الطفل الموهوب في العائلات أحادية الوالد، أو لدى الوالدين اللذين يركّزان بشكل ملّح على إنجازات الطفل. يصبح من السهل في العائلات أحادية الأب أو الأم انقياد الوالد وراء رغبات الطفل حيث لا يوجد أي شخص آخر غيره يتفاعل معه في البيت. وقد يحدث هذا الانخراط أحياناً عندما يرى الوالدان أطفالهما يضيّعون الفرص التي لم يحصلوا عليها، مع أنّهما كانا يتمنيان ذلك، منها مثلاً، دروس الموسيقى، أو المسرح، ومن ثم يدفعان الطفل دفعاً إلى التفوّق في واحد أو أكثر من هذه الميادين^٨.

ولهذا، من الأهمية بمكان إذن، أن تكون لك نظرتك الخاصة للأمور، وأن تكون هناك مسافة معقولة بينك وبين طفلك. وهذا يستلزم السؤال المهم التالي: إلى أي مدى يجب أن يتورط الوالدان مادياً، وانفعالياً في حياة أطفالهما؟

هل تضغط كثيراً على طفلك أم تهتم به فحسب؟

غالباً ما يوجّه المتخصصون انتقادات مباشرة وغير مباشرة للوالدين اللذين يضغطان كثيراً على أطفالهما أو يلحون عليهم. فكثيراً ما يُلفت الأطفال كثيرون المطالب انتباه أحد الوالدين، فيكرس هذا الوالد حياته لرعاية موهبة طفله. ولكن، متى يزيد إلحاح الوالد على طفله؟ للإجابة عن هذا التساؤل أسأل نفسك السؤال التالي: «إلى أيّ درجة أعيش تخيّلتي وأحلامي في أثناء رعاية طفلي، بدلاً من مساعدته على تطوير قدراته وإمكاناته؟» وعبارة أخرى، هل تلبّي حاجتك الخاصة، أم حاجات طفلك؟ هل جهودك موجهة نحو الطفل أم أنّها تتعلّق بحاجاتك التي لم تُشبع حتّى الآن؟ والحقيقة أنّ الارتباط أو التعلّق القويّ - أو المحدود- بالطفل قد لا يكون أمراً سيئاً أبداً. فالآباء الذين يستغرقون قدراً كبيراً من الوقت والطاقة لخدمة طفل معيّن؛ كي يدافعوا عن موهبته أمام الآخرين، غالباً ما يكونون منغمسون في حياته(٩). ومع ذلك، كثيراً ما تستدعي المطالبة بتربية مناسبة للطفل الموهوب، - لا سيّما شديد الموهبة- انخراطاً قوياً في القضايا التي تخصّ هذا الطفل. وتظهر الدراسات أنّ الراشدين الذين حققوا شهرة في وقت متأخّر من حياتهم، كان آباؤهم مهتمين كثيراً بهم عندما كانوا أطفالاً وكانوا يضغطون على أطفالهم إلى حدّ ما؟ فقد تتبعت دراسات كلاسيكية، منها مثلاً دراسة: مهد الشهرة: طفولة أكثر من ٧٠٠ من مشاهير الرجال والنساء، ودراسة تطوير النبوغ لدى الشباب: *Cradles of Eminence: The Childhoods of More Than 700 Famous Men and Woman and Developing Talent in Young People*، حياة أشخاص وصلوا إلى أعلى مستويات الإنجاز. وقد أكدت هذه الدراسات أنّ مشاركة الوالدين وتشجيعهما ضروريان إذا أريد للأطفال أن يطوروا نبوغهم الاستثنائي في ألعاب القوى، أو الموسيقى، أو غيرها.

هل تنجح الحكمة العامة مع الأطفال الاستثنائيين؟

يختلف طفلك الاستثنائي عن الأطفال الآخرين، وقد تضطرّ بسبب هذا الاختلاف إلى الاعتماد على نفسك- أكثر من أيّ والد آخر- لتقرّر ما هو ملائم له. لا يمكنك الاعتماد دائماً على الممارسات الشائعة في تربية الأطفال، أو حتّى الحصول على إرشاد من الأشخاص المتخصصين مثل، المربين، وعلماء النفس، والأطباء ما لم تكن لهؤلاء خبرة جيّدة بكيفية التعامل مع الأطفال الموهوبين. يتعيّن عليك طبعاً، أن تستفيد من نصائح هؤلاء، لكن تذكّر أيضاً أنّ طفلك فريد من نوعه ومتميّز، وأنّ عليك أحياناً أن تتخذ بشأنه قرارات قد لا يوافقك عليها الآخرون. فعلى سبيل المثال، قد يحتاج طفلك إلى النوم أقلّ ممّا يحتاج إليه أقرانه، أو قد يكون شديد الحساسية للأصوات، أو يحتاج إلى التقدّم سريعاً في مادة الرياضيات. يتعيّن عليك بصفتك والد طفل موهوب- وهو طفل ذو حاجات خاصّة- أن تبذل طاقة ووقتاً أكبر في الاهتمام بحاجاته واهتماماته. ومن المحتمل أن تحصل على نصائح مجانية من مصادر متعدّدة، بما فيها الطفل نفسه، تعرف منها كيف تكون أباً جيّداً في تعاملك مع الطفل. ومن الممكن أن تختلف خبراتك اليومية أيضاً عن خبرات أصدقائك وجيرانك. لقد اشتكى والد أحد الأطفال الموهوبين من التعب الذي يتحمّله نتيجة العيش مع طفل كثير التساؤلات والتحدّيات اللفظية، فقال: «إنّ طفله أشبه ما يكون بمحامٍ بارع، يلاحظ كلّ الثغرات والاستثناءات». إنّ هؤلاء الأطفال، بما يملكون

من قوّة الشخصية والملاحظة، يتركون آثاراً قويّة على عائلاتهم. فقد علّقت إحدى الأمّهات ذات مرّة على ذلك قائلة: «لستُ أمّاً تضغط على طفلها؛ ولكنّه طفل كثير الضغط عليّ».

قد لا يستطيع الوالدان دائماً أن يتحدثوا مع آباء وأمّهات آخرين، ولا حتّى مع المتخصصين. ويصعب أحياناً على الناس ذوي الخبرة المحدودة، أو الذين لا خبرة لهم مع الأطفال الموهوبين فهم القضايا المعقّدة المتضمّنة في تنشئة الأطفال الموهوبين والاستثنائيين. فأنت إن ناقشت بعض الأمثلة عن موهبة طفلك مع الآخرين، فقد يعتقدون أنك تبالغ كثيراً، إنهم بكلّ بساطة لن يصدقوا أنّ الأطفال الموهوبين يفعلون بعض الأمور، أو يقولون الأشياء التي يعترف آباؤهم أنّهم يقولونها، أو يفعلونها حقّاً لأنهم يعيشون معهم. ونستطيع أن نتفهّم سبب إحجام آباء الأطفال الموهوبين عن إخبار أصدقائهم، ومعارفهم بإنجازات أطفالهم، ويشعرون في معظم الأحيان أنّ عليهم التقليل من شأن قدرات هؤلاء الأطفال. كما أنّ عائلات الأطفال الموهوبين تواجه صعوبة في التكيف مع أزواج آخرين، أو عائلات أخرى، إن كان أطفال هذه العائلات لا يشاركون الطفل الموهوب الاهتمامات ذاتها^{١١}.

تعادل ضغوطات الأقران على الوالدين الضغوطات الواقعة على أطفالهم تقريباً. ومن واجب الوالدين تطوير ردود مقنّعة لما يواجهانه من انتقادات تتعلّق بضغطهم الزائد على أطفالهم، أو فرض عدد قليل من القيود، أو الانغماس الزائد عن الحدّ في حياة أطفالهما. فمن المحتمل أن يفرض والدا الطفل الموهوب أحياناً قيوداً قليلة على سلوكه، لا سيّما إن اعتادا التجاوز عن بعض سلوكياته السيّئة؛ لأنّه طفل موهوب. وقد يتعلّم الوالدان تعزيز إبداع طفلهما وصفاته الموهوبة الأخرى، لكنهما قد يهملان تقديم النصح اللازم لتطوير السلوكيات الاجتماعيّة الملائمة التي تظهر عادةً في الطفل المدلّل، والأناي. فعلى سبيل المثال، قد يعلّق أحد الوالدين على طفله الذي اشتكى الجيران أنّه رسم على جدار بيتهم، مقلّلاً من أهميّة ذلك السلوك بالقول: «لا بأس، إنّهُ الطفل المبدع في هذه العائلة». نحن لا نريد أن نسحق رغباته الإبداعية، لكنّ هذا الطفل-على الرغم من إبداعاته كلّها- لا يزال بحاجة إلى من يفرض القيود على سلوكه، ويوجّهه الوجهة الصحيحة. فلا يمكن أن تكون الموهبة بحال من الأحوال مبرراً لإساءة التصرف.

يثبت كثير من الأطفال الموهوبين يومياً تناغم الفضائل الاجتماعيّة مع الذكاء المرتفع، والإنجاز المتميّز. ومن الممكن أن تتعطلّ إنجازات الطفل، في الوقت الحالي أو لاحقاً، إن لم تتوافر له المهارات الاجتماعيّة المناسبة. من أجل ذلك يجب أن يقرّر الوالدان إن كان طفلهما قد اكتسب المهارات اللازمة للتأقلم مع المجتمع، وأن يطلقا العنان أمامه لاستعمال ذكائه في المجتمع والعالم. غير أنّ هذه المهارات يجب أن تتطوّر دون أن يفقد الطفل شيئاً من التكامل الشخصي، أو الإبداع، أو الاستقلالية. حتماً سيكون هذا أمراً صعباً؛ نظراً للضغوطات التي يواجهها الوالدان من الأقران، التي لن تكون أقلّ شدّة من تلك الواقعة على الأطفال.

التوازن العائليّ

قد تشبه العائلة النظام الشمسيّ، حيث تتخذ الكواكب مداراتها المناسبة، وتوازنها النسبي. وعندما

تطراً بعض الأحداث - سواء من داخل هذا النظام، أو من خارجه- فإن توازن نظام العائلة يخرج عن المستوى المناسب، وتحدث إعادة التكيّف عندما تحاول العائلة الوصول إلى توازن جديد. فالضغوطات والأزمات - سواء كانت صغيرة أو كبيرة- تحدث في العائلات كلها بمرور الزمن، وتؤدي إلى تغيير العلاقات بين أفرادها، وإلى فترة مؤقتة من عدم الاستقرار تتطلب من العائلة أن تعيد النظر في تكيّفها للوصول إلى توازن جديد. ومن الأمثلة على تلك الضغوطات: التحاق الأطفال بمدرسة جديدة، أو الانضمام إلى مجموعة جديدة من الأصدقاء، أو الطلاق، أو مرض أحد أفراد العائلة، أو إصابته بحادث خطير، أو سفر أحد أفراد العائلة للدراسة في الجامعة، أو الزواج. فعندما يطرأ تغيير على أحد أفراد العائلة، يضطر الآخرون إلى التكيّف، ومحاولة الاستجابة له؛ ممّا يؤدي إلى ظهور أدوار جديدة، لا سيّما التي تخصّ الأطفال في أثناء فترة التكيّف، فقد تشتدّ المنافسة بين الأشقاء، أو قد يتحسنّ تقدير الذات لدى بعضهم، وقد يُبدون أحياناً اهتماماً جديداً بعادات العائلة، وتظهر أحياناً أخرى حالات من تندي التحصيل، أو التمرد، أو الانسحاب، أو أيّ سلوك آخر غير متوقّع.

وقد يكون الطلاق، أو موت أحد أفراد العائلة من بين أشدّ الأحداث إثارة للضغط والتوتر، حيث تواجه كلّ عائلة في أثناء هذه الظروف كثيراً من الحزن، وآلام ما بعد الصدمة. ويستجيب الأطفال الموهوبون في معظم الأحيان لهذه الأحداث بكثير من القلق، والغضب، والشعور بالذنب، والاكئاب، وانفعالات أخرى تؤثر في الوالدين والأطفال الآخرين على حدّ سواء. قد تقع عائلتك حينها في مأزق، أو قد تفقد توازنها واستقرارها، وربما تكون على حافة الانهيار، وقد يبدو أفراد العائلة - بمن فيهم طفلك الموهوب- بعيدين عنك، ومتقلّبين، ومن غير الممكن أن تتوقّع سلوكياتهم، وسيظهر نمط جديد من التوازن في نهاية الأمر. وتعتمد الفترة التي تحتاج إليها العائلة للوصول إلى هذا التوازن الجديد على مدى الأذى الذي تسبّب به الحدث، ولكنها تمتدّ من ثلاثة إلى تسعة أشهر عادةً. وقد يكون النمط الجديد نمطاً صحياً، ومقنعاً أكثر من النمط السابق، أو قد يكون عكس ذلك. وتعتمد نوعيّة التوازن الجديد على التواصل، وكيفية إدارة العلاقات في أثناء هذه الأحداث غير المستقرّة، إذ يجب أن تطمئن أطفالك على استقرار أمنهم الأساسي، وانتمائهم داخل العائلة. كما يتعيّن على الوالدين، على سبيل المثال، أن يعلما أطفالهما في حالة وقوع الطلاق، أنّهما غير مسؤولين عن ذلك الحدث، وأنّهما كليهما يحنانهم، وسوف يفعلان ما هو في مصلحتهم.

يمكن أن يساعد هذا المقدار القليل من الوقت الذي يستغرقه الوالدان في طمأنة الأطفال على أن يكتسبوا نظرة واقعيّة بأن الحياة تتضمن التغيير دائماً، وأنّ التغيير يتضمّن الخسارة - التي تكون ضروريّة في معظمها - وأنّ الخسارة تهيئ لهم فرصاً جديدة^{١٢}.

العائلات المختلطة ورعاية أبناء الزوج أو الزوجة

تحدث إحدى الحالات المثيرة لعدم التوازن عندما يؤدي تكرار الزواج إلى تشكيل عائلات مختلطة، حيث يتلاقى زوج وزوجة، لدى كلّ منهما أطفال من زيجات سابقة، ولهما طريقتان مختلفتان في التعامل مع الأمور؛ ليكوّنا عائلة واحدة جديدة. وإذا كنت قد مررت بهذه التجربة، فأنت بلا شك

تعرف الصعوبات التي تمر بها مثل هذه الزوجات. في مثل هذه الحالات، يكون كل من الأب والأم قد عاشا سنوات طويلة مع أطفالهما، ولديهما أنماط وتقاليد وتوقعات لا تخص الأطفال فحسب، وإنما تتعلّق بالدور المتوقع من الأب الآخر أو الأم الأخرى. وتؤكد معدلات فشل الزواج الثاني والثالث حجم الصعوبات المرافقة لمثل هذه الزوجات.

وفي حال حدوث مثل هذه الزوجات، وكان لدى إحدى العائلتين طفلاً موهوباً، فكيف يبني زوج الأم (أو زوجة الأب) علاقة مع هذا الطفل؟ يعتمد ذلك على عمر الطفل وشخصيته. ولعل من الحكمة أن تترىث قليلاً، وتمضي مقداراً مهماً من الوقت تلاحظ فيه الطفل، وتستمع إليه وإلى شريك الآخر، الذي كان له تاريخ أطول في التعامل مع الطفل. فإذا كنت زوج أم الطفل الموهوب (أو كنت زوجة أب الطفل الموهوب) ولم تشاهد تطوّراته وسلوكاته المبكّرة، فربما تنقصك بعض المعلومات الأساسية التي يمكنها مساعدتك على بناء علاقة قويّة معه. إنّ إدراكك الاختلاف بين الأطفال المبدعين عن الأطفال الآخرين، سوف يساعدك على ذلك كلّ. ومن المحتمل أن تكون العلاقة التي تبنيها مع طفل زوجتك، (أو مع طفل زوجك) مختلفة عن علاقتك بأطفالك الحقيقيين، ولا شك في أنّ تلك العلاقة سوف تتطلب كثيراً من الانفتاح والحساسية. اسمح لهذه العلاقة أن تتطور حسب سرعتها الطبيعيّة، ولا تحاول أن تفرض سرعة تطوّرها.

أم في ما يتعلق بالعائلة، فمن الصعب جداً أن يمتزج أسلوبان منفصلان من أساليب تنشئة الأطفال في الوقت نفسه الذي يحاول فيه كل من الطرفين بناء علاقات فريديّة، وتحمل مسؤوليات أبوية جديدة. ويزداد التحدي وضوحاً عندما يمتلك واحد أو أكثر من أطفال الزوج (أو أطفال الزوجة) قدرات ومواهب تختلف عمّا لدى الأطفال الآخرين. عندها، قد تحتاج العائلة في مثل هذه الحالات إلى سنوات عديدة؛ كي يشعر أفرادها جميعاً بالارتياح.

وثمة معضلة تتكرّر في العائلات المختلطة عندما يصبح الوالد البيولوجي متحدثاً رسمياً باسم طفله، أو يشعر أنّه مسئول عن حمايته من غضب الوالد البديل. ولا يؤدي هذا إلى إعاقة قدرة الوالد البديل على بناء علاقة معقولة مع ذلك الطفل فحسب، بل يعني أيضاً تجاهل قدرة الطفل في الدفاع عن نفسه، أو تحدّ منها على الأقل. إنّ السماح للطفل بالارتباط بالوالد الجديد وفق شروط الطفل، وفي الوقت الذي يحدّه هو، وبشروطه هو، يمكن أن يكون صعب المنال، إلا أنّه مفيد جداً لتطوير علاقات إيجابية.

اختلاف أساليب الرعاية الأبوية

على الرغم من أنّ معظم آباء الأطفال الموهوبين وأمّاتهم يستعملون أساليب دعم تربوية متشابهة عندما يكون الأطفال صغاراً، إلا أنّها تتباعد عندما يكبر هؤلاء الأطفال. وتختلف هذه الأساليب عن بعضها بعضاً اختلافاً جذرياً حين يبلغ الأطفال سنّ المدرسة، لا سيّما في الحالات التي يتولّى فيها زوج الأم (أو زوجة الأب) أمور العائلة. وقد أشارت إحدى الدراسات في هذا المجال إلى أنّ ثلاثة أرباع الأطفال الموهوبين ذكروا أنّ توقعات والديهم اختلفت عندما التحقوا بالمدرسة^{١٣}.

من الأهمية بمكان المحافظة على فلسفة متسقة لرعاية الأطفال، وإن كان ذلك أمراً صعباً. فقد يتولى والد وحيد - وهو الأم في معظم الأحيان- الدور الرئيس في رعاية الأطفال، في حين أوضحت البحوث أن للآباء- وليس للأمهات فقط- دوراً مهماً جداً في تطور أطفالهم، بما في ذلك التأثير في تطوّرهم العقلي^٩. فعلى سبيل المثال، قد يقوم أحد الوالدين في بعض العائلات بدور المتسلط، ويقوم الوالد الآخر بدور المنفذ^{١٠}. يعدّ تباين أساليب الوالدين- حيث يتوقّع أحدهما إنجازات كبيرة من الطفل، ويحاول الآخر حمايته- سبباً من أحد أهم أسباب المشكلات العائلية، كما يرتبط عدم الاتساق بين أساليب الرعاية الوالديّة، معظم الأحيان، بتدني التحصيل المدرسي.

إن الوالدين هما القدوة المثلى التي يحاول الأطفال محاكاتها. وتؤثر طريقة تواصلك معهم، وطريقتك في التحدّث عن عملك، ومقدار اهتمامك المتقن بتفاصيل مشاريع المنزل، وطريقة استجابتك للضغوطات، ومقدار الاحترام الذي يبديه كلا الوالدين للآخر وللعائلة تقدّم للأطفال نموذجاً يقتدون به. ولهذا فإن ردود فعلك وسلوكاتك تؤثر في نوعيّة العلاقات القائمة في العائلة الجديدة، وتسمح للأطفال الاستفادة من هذه الخبرات عندما يكونون عائلات في المستقبل.

الخلافات بين الوالدين

تمرّ أوقات على الآباء والأمهات كلهم، يختلفون فيها مع بعضهم بعضاً، أو يكونون على وشك الدخول في جدال قويّ. فقد يرى أحد الوالدين، على سبيل المثال، أنّ الوالد الآخر من الممكن أن يقول أو يفعل شيئاً في غير مصلحة الأطفال. فعلى سبيل المثال، قد يصل الوالد الذي يشعر بالتعب والضغط إلى حافة «فقد أعصابه». إن مثل هذه الأوقات الصعبة تتطّلب قدراً كبيراً من الحذر لضمان أن لا يدمر أحد الوالدين سلطة الآخر، أو يخرب العلاقات العائليّة بدون قصد منه.

ومن أجل الحفاظ على علاقة عائلية سليمة، يتعيّن على الوالدين أن يناقشا معاً القضايا التي تخصّ الطفل- بعيداً عن مسمعه- لا سيّما إن اختلفا في قضية ما، أو موقف معيّن. ومن الأفضل أن يوحد الوالدان وجهتيّ نظريهما دائماً. ولهذا، لا تسمح للطفل بالتدخل في مناقشاتكما، أو محاولة التأثير فيها. يمكن أن تقول الأم مثلاً: «أنا ووالدك بحاجة إلى بعض الوقت؛ كي نفكر في هذه المسألة ونتبادل الرأي بخصوصها. سوف نتحدّث معك عنها غداً، ونزوّدك بوجهة نظرنا.» ويمكن للوالدين بعد ذلك أن يناقشا معاً موقفيهما ويتوصلا إلى اتفاق. وبعد أن يستمع كل واحد منكما إلى الآخر، ينصح حينها بإعداد قائمة من الإيجابيات والسلبيات، ومن ثمّ توصلا إلى قرار تتبينانه معاً، وقد تتفقان على تسوية جوانب الخلاف بينكما.

وعندما يرتكب أحد الوالدين خطأ ما، يتعيّن على الآخر أن يدعم شريكه، وإن اختلف معه. يمكن على سبيل المثال أن يقول الأب: «لقد قرّرت أمك ألا تسمح لك بالمشاركة في مباراة كرة السلة هذا الأسبوع، وأنا أدعم هذا القرار. يمكنك المشاركة في تلك المباراة الأسبوع القادم.» وحتى في حالة عدم اتفاقهما، يتعيّن على الوالدين إذن أن يتأكّدا من تنفيذ القيود المفروضة على الطفل، ويظهرها أمامه متحدّين، وإلا فإنّ هذا الطفل الذكيّ سوف يحاول استغلال خلافاهما للتحكّم في الأحداث المستقبلية لصالحه.

اقتراحات عملية

يرغب الآباء والأمهات جميعهم أن يكونوا قدوة جيّدة لأطفالهم؛ كي يعيش هؤلاء الأطفال حياة مليئة بالسعادة، والإنجاز، والقناعة، والرضا.

وإذا ما أخذنا هذا الهدف في الحسبان، ما أفضل الطرق لتجنّب استعمال الأنماط القديمة، والعبارات السلبية التي تعلّمناها في طفولتنا؟ كيف نذكر أنفسنا بفعل الأمور التي يتعيّن علينا فعلها؟ أولاً، اعتن بنفسك جيّداً، وعزّز تقديرك لذاتك، وحدّد لنفسك وقتاً خاصاً بك، وخطّط جيّداً لتجديد ذاتك، فإنّ فاقد الشيء لا يعطيه.

ثانياً، حاول تشكيل شبكة للدعم، واعمل أنت وزوجتك ليدعم كلّ منكما الآخر. عندما يكون أحدكما مجهداً، فليأخذ الآخر زمام المبادرة. تشاركوا المسؤوليات المنزلية ورعاية الأطفال، وتأكدوا أنّ كلّ واحد منكما قد يكون متعباً يوماً ما. مثلاً، قد تحتاج الأمّ إلى تناول العشاء ذات ليلة مع صديقاتها، وقد يرغب الأب مشاهدة فيلم، أو ممارسة لعبة كرة السلة. يمكن للوالدين أن يتبادلا الأدوار في القيام بأعمال الطبخ وغسل الصحون وحمل الأطفال إلى السرير وقراءة القصص لهم قبل النوم، فلا يوجد بديل عن الوالدين بصفتهم شريكين يسعيان معاً إلى منح أطفالهما الإحساس بتكاتف العائلة، والشعور بالأمن.

حاول جهدك أن تحافظ على علاقة شخصية قويّة مع شريك حياتك. قدّما لبعضكما أشياء بسيطة يثبت فيها كلّ منكما للآخر أنّه يقدر شراكنه أكثر من مجرد الدور المتوقع منه بصفته زوجاً، أو بصفتها زوجة. اقضيا وقتاً معاً بعد ذهاب الأطفال إلى النوم. حافظا على إبقاء قنوات التواصل مفتوحة بينكما وتحدثا عما مررتم به في ذلك اليوم. أخبرا بعضكما قصصاً حول إنجازات الأطفال، وسلوكاتهم الغريبة. افعلوا أشياء تستمتعان بها معاً ويكون دور الأطفال فيها ثانوياً. اخرجوا لتناول الطعام لوحكما أو لزيارة الأصدقاء. اطلبا جليسة أطفال أو خذا الأطفال معكما، لكن يظل الهدف هو قضاء وقت مع شريك حياتك، وعليكما أن تفعلوا كل ما يجعل الأطفال يدركون وجود علاقة مميزة بين والديهما، تختلف عن علاقتهما بهم.

وإذا كنت والدًا وحيدًا أو كنتِ والدة وحيدة، فإنّ النصيحة ذاتها تنطبق عليك من حيث اهتمامك بنفسك وبعلاقاتك مع الآخرين. ابحث عن مصدر دعم من شبكة الأصدقاء، أو الجيران، أو من أفراد عائلتك. لا تخصّص وقتك كلّهُ لطفلك؛ بل اقتطع جزءاً منه لاهتماماتك وعلاقاتك الأخرى. حاول أن تنضمّ إلى مجموعة من الرفاق، أو تحضر بعض الدروس التي تحبّها. يمكنك أن تصطحب طفلك معك، وخذ في الحسبان أن يكون تركيزك واهتمامك على ما تحبّ فعله أنت، لا على ما يحبّ أن يفعله طفلك.

الراشدون الموهوبون

من غير المستهجن أن يكون كثير من آباء وأمهات الأطفال الموهوبين مبدعين وموهوبين أيضاً. وربما تكون قد اكتشفت، وأنت تقرأ هذا الكتاب، أنّ كثيراً من صفات الأطفال الموهوبين (الشدة،

والحساسية، والمستوى العالي من الطاقة) تنطبق عليك أنت الآن، وأنت شخص راشد كبير. حاول أن تستشعر كيف أن سماتك الإبداعية تؤثر في توقعاتك من أفراد عائلتك، وفي طريقة تواصلك معهم، إضافة إلى تأثيرها في علاقاتك مع زملائك ورؤسائك في العمل. وكما هو الحال مع الأطفال الموهوبين، فإن رغباتك، واهتمامك بالنوعية، وسعيك إلى الكمال، وسرعة نفاذ صبرك يمكن أن تمثل جوانب قوة في شخصيتك، ولكنها في الوقت ذاته، قد تعيق تطورك. وقد تكتشف أن عدم قناعتك ببعض جوانب شخصيتك ربما تنجم عن قضايا مرتبطة بالسمات التي تميز موهبتك.

توجد كتب قليلة متخصصة في بحث قضايا الراشدين الموهوبين^{١٦}. وتوجد كتب أخرى تدور حول النواحي التي تتناول قضايا مثل، المثالية، والبحث عن الفهم الشخصي، والمبادئ العامة.

شارك بفاعلية في حياة أطفالك، لكن افصل في الوقت ذاته، بين رغباتك الخاصة وبين رغباتهم. اسمح لأطفالك أن يعيشوا حياتهم، وعش أنت حياتك. تفهم أهمية علاقتك بطفلك، وحافظ عليها. فكر في السلوكيات التي ترعى بها أطفالك كمل لو كانت رصيدك في أحد البنوك. فكلما أضفت قليلاً إلى هذا الرصيد، فإن المبلغ الإجمالي سينمو بالتأكيد. قد تنمو استثماراتك بسرعة أحياناً، وببطء أحياناً أخرى. لكنك، بعد عدة سنوات، ستجمع مقداراً كبيراً يمثل إنفاقاً جيداً لأطفالك، ويشعرك بالسعادة والرضا والارتياح.

